المبحث الثاني

وصف رحمته ﷺ وأقسامها، والآيات التي أشارت إلى معالم الرحمة في أخلاقه ﷺ

أولاً: وصف رحمته ﷺ وأقسامها:

من عظيم رحمة الله تعالىٰ الجليلة بعباده أن أنزل الكتب وأرسل الرسل، واصطفىٰ محمدًا ﷺ وفضَّله، فكان سيدَ ولد آدم، وخَاتمَ الأنبياء وإمام المرسلين، بعدما أدَّبه ربُّ العالمين فأحسن تأديبه، وحسَّن خَلْقه وزكَّىٰ خُلُقه؛ فأكرم الناس بمبعثه لهم كافة؛ ليخرجهم به من الظلمات إلىٰ النور، وليتمم به مكارم الأخلاق، وليكون رحمة للعالمين.

فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان محمد ﷺ رحمة لجميع الناس؛ فمن آمن به وصدَّق به سَعِدَ، ومن لم يؤمن به سَلِمَ مما لَحِقَ الأممَ من الخسف والغَرَق»(١).

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٣٥٠).

فكان رسولُه محمدٌ ﷺ رحمةً للخلائق عامَّة؛ للمؤمن بالهداية، وللكافر بتأخير العذاب، وللمنافق بالأمن من القتل، وللمُعاهد وللمستأمن وللذميِّ بدخوله في عهده وأمانه وذِمَّته.

ولذلك كانت الرحمة التي حَبَاها سبحانه لنبيه تنقسم إلىٰ قسمين:

رحمة عامة لسائر الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ورحمة خاصة بأتباعه؛ قال تعالىٰ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يخبر تعالىٰ أن الله جَعَل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلَّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكَر هذه النعمةَ- سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدَّها وجَحَدَها خَسِر في الدنيا والآخرة»(١).

وقد قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ**

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٣٨٥).

بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

وقد بيَّن ﷺ منزلة رحمته العظيمة من أخلاقه المنيفة فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»(٢).

وقال: «**أَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي سَبَبْتُهُ سَبَّةً أَوْ لَعَنْتُهُ لَعْنَةً فِي غَضَبِي، فَإِنَّمَا أَنَا مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُونَ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ فَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ صَلَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٣).

ولما قيل له: يا رسول اللّه، ادعُ اللّه علىٰ المشركين. قال: «**إِنِّي لم أُبعث لعَّانًا، وإنَّما بُعِثتُ رحمةً**»(٤).

وعن أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالمُقَفِّي، وَالحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٩١) حديث (١٠٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٥٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٥٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٥٥).

وجعل الله تعالىٰ وُجُودَه بين أصحابه أَمَنَة لهم من العذاب، فقال ﷺ: «... **وأنَا أَمَنَةٌ لأصحابي؛ فإذا ذهبتُ أَتَىٰ أصحابي ما يُوعدون...**»(١).

وقال ﷺ كما في حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- في صلاة الكسوف: «... **ربِّ ألم تعدني ألَّا تعذِّبَهم وأنَا فيهم؟ ألم تَعِدْنِي ألَّا تعذِّبَهم وهم يَستغفرون؟**»(٢).

وكانت هذه صفته ﷺ في الكتب السابقة قبل أن تنالها يدُ التحريف؛ فعن عطاء رضي الله عنه قال: قلت لعبد الله بن عمرو أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: «أَجَلْ، وَاللهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]....»(٣).

ومظاهر رحمته ﷺ قد تجلَّت في حياته كلها، وحفلت

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١)، من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (١١٩٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود».

(٣) تقدم كاملًا، والحديث أخرجه البخاري (٢١٢٥).

بها سيرتُه المباركة، وامتلأت بها شريعتُه المشرفة، فرحم كل من حوله: الصغير والكبير، والقريب والبعيد، والمرأة والضعيف، بل شملت رحمته الإنس والجان والحيوان، وجاء بشريعة كلها خير ورحمة للعباد، وما من سبيل يوصل إلىٰ رحمة الله تعالىٰ إلا جلَّاه لأمته، وحضَّهم علىٰ سلوكه، وما من طريق تبعدهم عن رحمة الله تعالىٰ إلا زجرهم عنها، وحذرهم منها؛ رحمة بهم، وشفقة عليهم؛ حتىٰ كاد من حرصه علىٰ هدايتهم أن يُهلِك نفسَه، فعَاتَبَه ربُّه ونهاه عن ذلك؛ فقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: ٦].

ودعا ﷺ إلىٰ التراحم فقال: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ؛ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ- يَرْحَمْكُم مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١).

وأخبر أن الرحيم مثواه الجنة فقال: «... **وَأَهْلُ الجَنَّةِ**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٢٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ، وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ...»(١).

ومع امتلاء سيرته بمواقفَ جلَّت للعالمين رحمته بهم؛ إلا أنها حفظت كذلك مواقف أخرىٰ أوقع فيها العقوبة الشديدة علىٰ من يستحقُّها، وليس ذلك مما يتعارض مع صفة الرحمة التي امتلأ بها قلبه، بل هي من وضع الرحمة في موضعها اللائق بها؛ لئلا تتحول إلىٰ ضعف وعجز؛ فقاتل ﷺ من استحقَّ القتال من المشركين واليهود، وضرب بسيفه في سبيل الله، وقتل أُبيَّ بن خلف بيده، وأمر بقتل جماعة من المشركين ومن اليهود، وقتل المحاربين المرتدين بعد أن قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

وكما دعا ﷺ لبعض المشركين بالهداية، واستسقىٰ لهم؛ دعا كذلك علىٰ آخرين بالعذاب والزلزلة والنار.

كل هذه الحوادث ومثيلاتها تشريعٌ من رب العالمين، أوحىٰ به إلىٰ الرسول الأمين ﷺ، أو أقرَّ الله تعالىٰ اجتهاده

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

فيها، وهو ﷺ لا يَنطق عن الهوىٰ؛ إن هو إلا وحي يوحىٰ؛ فكانت هذه الأحكام منه ﷺ حقًّا وصدقًا وعدلًا.

وقد ضلَّ قومٌ من أعداء هذا الدين؛ فحاولوا التشنيع بمثل هذه الأحداث علىٰ سيرة الرحمة المهداة ﷺ، واختزلوا السيرة النبوية فيها، وقدَّموها لأذنابهم علىٰ أنها براهين علىٰ دموية النبي ﷺ وأتباعه من المسلمين، وحمَّلوها ما لا تحتمل.

وكذلك لم يُنصفوا فيذكروا ما فاضت به كتب السنة والسيرة مما لا يكاد يُحصىٰ من مواقفه ﷺ الرحيمة، وكريم شمائله، وعظيم صفحه.

فالنبيُّ العظيم ﷺ كان يَحمل القرآن لمن أراد الهداية والنجاة، والسيف لمن وقف في وجه الدعوة وحادَّ الله ورسوله مضطرًّا لذلك، بعد بذل قصارىٰ الجهد في الدعوة والبلاغ لإيصال رسالة الحق لمن وراءهم.

فلا بد لإقامة الدين والدولة من الرَّحمة الوَسَطية الحَقَّة؛ دونما إفراط أو تفريط؛ وهذا ما شهد به الأعداء قبل الأحباب والأتباع.

ونبيُّنا ﷺ القائد الوحيد الذي علَّم الدنيا أن القتال ليس

للتشفي ولا لحبِّ التملك؛ إنما لإزالة العوائق أمام تبليغ دين الله، ولذلك لم تَخْلُ حروبُه من رحمة، كما سأبين- إن شاء الله- في المبحث الثالث عند الحديث عن (رحمته ﷺ بالكافرين).

وكان من رحمته بأتباعه أن أقام الحدود علىٰ من انتهكها؛ فرجم ماعزًا والغامدية لما زنيا، وقطع السارق.

وهذا منتهىٰ الرحمة بهم، وإن كان في ظاهرها الشدة؛ إذ عقاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فكانت الحدود جوابر لمرتكبيها، وزواجر لغيرهم.

وهذا- لَعَمْر الله- من أظهر الأدلة علىٰ صدق النبي الأمين ﷺ، إذ لو كان يريد أن يَستكثر بالأتباع أو يتقوىٰ بالنُّصراء- ما جَلَد ظهر مَنِ اتبعه، ولا رَجَم مَن آمن به، لكنه مُبلغٌ دين ربه، قائمٌ بشرعه، لا يفعل هذا إلا طلبًا لمرضاته سبحانه؛ ولذلك لم يخش فيه لومة لائم.

وفي المُقابل لما خالطت بشاشة الإيمان قلوب أصحابه وأيقنوا بصدق نبيهم- هانت من وقع في المعصية نفسُه عليه، وجَادَ بها لله؛ ليطَّهر من درن الرذيلة، فرضي الله عنهم، وغفر لهم.

ثانيًا: رحمة النبي ﷺ في القرآن الكريم:

أعلىٰ الله قدر الحبيب ﷺ؛ فلم يناده باسمه بخلاف إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

قال السيوطي: «باب تشريفه بمخاطبة الله له ﷺ: قال العلماء: ومن خصائصه: أن الله تعالىٰ لم يناده في القرآن باسمه، بل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل: ١]؛ بخلاف سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه خاطبهم بأسمائهم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ [هود: ٧٦]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ١٢]»(١).

وشَرَحَ له صَدْرَه، ووَضَعَ عنه وِزْرَه، ورَفَع له ذِكْره،

(١) «الخصائص الكبرىٰ» (٢/ ٢٨٣).

وهدىٰ قلبه، وملأه رحمة، وأرسله رحمة للعالمين، ووصفه بأنه علىٰ خلق عظيم، ومن أخلاقه الجليلة، وصفاته الحميدة المباركة؛ صفة الرحمة.

والآيات التي أشارت إلى هذه الصفة في أخلاقه ﷺ تصريحًا وتلميحًا كثيرة جدًّا؛ أذكر منها:

١- **قوله تعالىٰ:** ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول ابن كثير: «﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: لو كنت سيِّئَ الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم»(١).

فكانت هذه صفته الدائمة الملازمة له؛ التي أَسَر بها قلوب الناس حوله، فلم يسعهم بماله، ولا بتوزيع المناصب عليهم، وإنما وسعهم برحمته بهم، وحرصه علىٰ هدايتهم، حتىٰ جمعهم الله عليه؛ قال تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٤٨).

حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

فليَّن الله قلبه لهم، وحسَّن أخلاقه معهم، وامتن علىٰ العالمين ببعثته.

٢- قوله سبحانه وتعالىٰ في مَعرض ذكر إيذاء المنافقين له ﷺ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٦١].

يقول العلَّامة السَّعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾؛ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يَقبلوا هذه الرحمة، بل ردُّوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم»(١).

فكان ﷺ رحمة بهؤلاء المنافقين؛ فقَبِل منهم ظواهرهم، ووكَلَ سرائرهم إلىٰ الله، ويشهد لهذا أنه ﷺ قال: «**إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ**»(٢).

---

(١) «تفسير السعدي» (ص ٣٤١).

(٢) متفق عليه: البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- **قوله جل في عُلاه:** ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: منكم وبِلُغَتِكم...، وقوله تعالىٰ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها...، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة علىٰ من يسرها الله تعالىٰ عليه، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ أي: علىٰ هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم». اهـ. باختصار(١).

وذكر القرطبيُّ عن الحسين بن الفضل قوله: «لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ؛ فإنه قال: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج: ٦٥](٢).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٤١).

(٢) انظر «تفسير القرطبي» (٨/ ٣٠٢).

٤- **قوله عَزَّ مِن قائل:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

يقول الشنقيطيُّ عند تفسيره لهذه الآية: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النَّبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلىٰ الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يُسعدهم، وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه، ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع علىٰ نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمىٰ»(١).

فلا يَحتج محتجٌّ بأن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكفار؛ إذ من كفر به دخل النار؛ لأنهم هم الذين أبوا طاعته ﷺ الذي ما أرسل إلا رحمة لهم؛ فقال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَىٰ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَنْ يَأْبَىٰ؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**»(٢).

هذا بعد أن قام بالبلاغ خير قيام، وما ترك سبيلاً يوصل إلىٰ الجنة إلا ودلَّ أمته (أمة الدعوة والرسالة) عليه، وما ترك

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شيئًا يقربها إلىٰ النار إلا وحذرها منه؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقد بين في هذا المثل حاله مع أمته؛ فقال: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا؛ فَأَنَا آخُذ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا**»(١).

٥- **قوله تبارك وتعالىٰ:** ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ...﴾ **الآية [الفتح: ٢٩].**

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُخبر تعالىٰ عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار: أنهم بأكمل الصفات، وأجل الأحوال، وأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: جَادُّون ومُجتهدون في عداوتهم، وسَاعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة، فلذلك ذَلَّ أعداؤهم لهم،

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٤٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وانكسروا، وقهرهم المسلمون، ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يُحبُّ أحدُهم لأخيه ما يحب لنفسه»(١).

وهذا علىٰ ميزان الحق والعدل مع المخالفين المحاربين؛ حماية لهذه الدعوة المباركة، ونشرًا لها؛ فلا بد للحق من قوة تحميه وتمنعه، حتىٰ يبلغ تمامه، وعلىٰ ميزان الفضل والإيثار مع الإخوة في الدين.

٦- وذكر الله تعالىٰ في كتابه البشارة بمبعث محمد ﷺ في الكتب السماوية المنزلة علىٰ الأنبياء السابقين؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فكان من رحمة الله بهم أن أرسل إليهم هذا النبي الأمي ليرحمهم مما لحقهم من الإصر والأغلال، وصارت هذه الرحمة سِمة هذه الشريعة ومَن جاءَ بها.

---

(١) «تفسير السعدي» (ص ٧٩٥).

يقول الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحكمةُ تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أنَّ أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها لأن تُسَاس بالرحمة، وأن تُدفعَ عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة، وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة- لم يجر في زمن من الأزمان إلا علىٰ مقتضىٰ الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلىٰ انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام علىٰ دعائم الرحمة والرفق واليسر؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[الحج: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال النبي ﷺ: «**بُعِثتُ بالحَنِيفيَّةِ السَّمْحَةِ**»(١)». اهـ.(٢).

٧- وبيَّن سبحانه الحكمة من إنزال كتابه علىٰ نبيه ﷺ؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النحل: ٦٤].

٨- وكان من فضله ﷺ علىٰ أُمَّته ورحمته بهم في حياته: أنهم إذا ارتكبوا المعاصي وجاءوه ﷺ نَادمين مُستغفرين- استغفر لهم الله ودعاه ليقبل توبتهم؛ **قال تعالىٰ:** ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء: ٦٤].

أما في الآخرة فستكون شفاعات الرءوف الرحيم ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) حديث (٢٢٣٤٥)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٢٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (١٧/ ١٢٣، ١٢٤).